

تفسير البيضاوي

وتسمى أُم القرآن لأنها مفتتحه ومبئده فكأنها أصله ومنشئه ولذلك تسمى أساساً أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله سبحانه وتعالى التعبيد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية والأحكام العملية التي هي سلوك الطريق المستقيم والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء وسورة الكنز والوافية والكافية لذلك وسورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسألة لاشتمالها عليها والصلة لوجوب قراءتها أو استحبابها فيها والشافية الشفاء لقوله عليه الصلاة السلام : [هي شفاء من كل داء] [والسبع المثاني] أنها سبع آيات بالاتفاق إلا أن منهم من عد التسمية دون { أنعمت عليهم } ومنهم من عكس وتنى في الصلاة أو الإنزال إن صح أنها نزلت بمكة حين فرضت الصلاة وبالمدينة حين حولت القبلة وقد صح أنها مكية لقوله تعالى : { ولقد آتيناك سبعاً من المثاني } وهو مكي بالنص .

1 - { بسم الله الرحمن الرحيم } من الفاتحة و من كل سورة وعليه قراءة مكة والكوفة وفقهاؤهما وابن المبارك تعالى و الشافعي وخالفهم قراءة المدينة والبصرة الشام وفقهاؤها و مالك و الأوزاعي ولم ينص أبو حنيفة فيه بشيء فظن أنها ليست من السورة عنده وسئل محمد بن الحسن عنها فقال : ما بين الدفتين كلام الله تعالى ولنا أحاديث كثيرة : منها ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال : [فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن { بسم الله الرحمن الرحيم }] وقول أم سلمة لها [قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتحة وعد { بسم الله الرحمن الرحيم } { الحمد لله رب العالمين }] ومن أجلهما اختلف في أنها آية برأسها أم بما بعدها والإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله سبحانه وتعالى والوافق على إثباتها في المصاحف مع البالغة في تجريد القرآن حتى لم تكتب آمين والباء متعلقة بمحذوف تقديرها : بسم الله الرحمن الرحيم لأن الذي يتلوه مقروء وكذلك يضرم كل فاعل ما يجعل التسمية مبدأ له وذلك أولى من أن يضرم أبداً لعدم ما يطابقه ويدل عليه أو ابتدائي لزيادة إضمار فيه وتقديم المعمول هنا أوقع كما في قوله : { بسم الله مجربها } وقوله { إياك نعبد } لأنه أهم وأدل على الاختصاص وأدخل في التعظيم وأوفق للوجود فإن اسمه سبحانه وتعالى مقدم على القراءة كيف لا وقد جعل الله لها من حيث إن الفعل لا يتم ولا يعتد به شرعاً ما لم يصدر باسمه تعالى لقوله عليه الصلاة السلام [كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر] وقيل الباء للمصاحبة . والمعنى متبركاً باسم الله تعالى أقرأ وهذه وما بعده إلى آخر السورة مقول على ألسنة العباد ليعلموا كيف يتبرك باسمه ويحمد على نعمه ويسأله من فضله وإنما كسرت ومن حق

الحروف المفردة أن تفتح لاختصاصها باللزوم الحرفية الجر كما كسرت لام الأمر ولام الإضافة داخله على المظهر للفصل بينهما وبين لام الابتداء والاسم عند أصحابنا البصريين من الأسماء التي حذفت أعيازها لكثرة الاستعمال وبينت أوائلها على السكون وأدخل عليها مبتدأ بها همزة الوصل لأن من دأ بهم أن يبتدئوا بالمحرك ويقفوا على الساكن ويشهد له تصريفه على أسماء وأسامي وسمى وسميت ومجيء سمي كهدى لغة فيه قال :

(و إسمك سمي مباركا ... آثرك إـ به إيثارك) .

والقلب بعيد غير مطرود واستيقاـه من السمو لأنه رفعة للمسمى وشعار له ومن السمة عند الكوفيـين وأصلـه وسم حذفت الواو وعوضـت عنها همزة الوصل ليـقل إـعلـله وردـ بأنـ الـهمـزة لم تعـهدـ داخلـهـ علىـ ماـ حـذـفـ صـدرـهـ فيـ كـلامـهـ وـمنـ لـغـاتـهـ سـمـ وـسمـ قالـ :

(بـسـمـ الـذـيـ فـيـ كـلـ سـوـرـةـ سـمـهـ) .

وـ الـاسـمـ إـنـ أـرـيدـ بـهـ الـلـفـطـ فـغـيـرـ الـمـسـمـيـ لـأـنـ يـتـأـلـفـ مـنـ أـصـوـاتـ مـتـقـطـعـةـ غـيرـ قـارـةـ وـيـخـتـلـفـ بـاـخـتـلـافـ الـأـمـمـ وـالـأـعـصـارـ وـيـتـعـدـ تـارـةـ وـيـتـحـدـ أـخـرىـ وـالـمـسـمـيـ لـاـ يـكـونـ كـذـلـكـ وـإـنـ أـرـيدـ بـهـ ذـاتـ الشـئـ فـهـوـ الـمـسـمـيـ لـكـنـهـ لـمـ يـشـتـهـرـ بـهـذـاـ الـمـعـنـىـ وـقـوـلـهـ تـعـالـىـ :ـ {ـ تـبـارـكـ اـسـمـ رـبـكـ}ـ وـ {ـ سـبـحـ اـسـمـ رـبـكـ}ـ الـمـرـادـ بـهـ الـلـفـطـ لـأـنـهـ كـمـ يـجـبـ تـنـزـيهـ ذـاتـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ وـصـفـاتـهـ عنـ النـقـائـصـ يـجـبـ تـنـزـيهـ الـأـلـفـاظـ الـمـوـضـوعـةـ لـهـاـ عـنـ الرـفـثـ وـسـوـءـ الـأـدـبـ أـوـ الـاسـمـ فـيـ مـقـمـ كـمـ كـمـ فـيـ قـوـلـ الشـاعـرـ :

(ـ إـلـىـ الـحـولـ ثـمـ اـسـمـ السـلـامـ عـلـيـكـمـ)ـ .

وـأـنـ أـرـيدـ بـهـ الصـفـةـ كـمـ هوـ رـأـيـ الشـيـخـ أـبـيـ الـحـسـنـ الـأـشـعـرـيـ انـقـسـمـ الصـفـةـ عـنـهـ :ـ إـلـىـ مـاـ هوـ نـفـسـ الـمـسـمـيـ وـإـلـىـ مـاـ هوـ غـيرـهـ وـإـلـىـ مـاـ لـيـسـ هوـ وـلـاـ غـيرـهـ وـإـنـماـ قـالـ بـسـمـ إـ وـلـمـ يـقـلـ بـإـ لـأـنـ التـبـرـكـ وـالـاستـعـانـةـ بـذـكـرـ اـسـمـهـ أـوـ لـلـفـرـقـ بـيـنـ الـيـمـينـ وـالـتـيمـينـ وـلـمـ تـكـتبـ الـأـلـفـ عـلـىـ مـاـ هوـ وـضـعـ الـخـطـ لـكـثـرـةـ الـاـسـتـعـمـالـ وـطـوـلـتـ الـبـاءـ عـوـضاـ عـنـهـ وـإـمـلـأـهـ إـلـهـ فـحـذـفـ الـهـمـزةـ وـعـوـضـ عـنـهـ الـأـلـفـ وـالـلـامـ وـلـذـلـكـ قـيـلـ :ـ يـاـ إـ بـالـقـطـ إـلـاـ أـنـهـ مـخـتـصـ بـالـمـعـبـودـ بـالـحـقـ وـالـإـلـهـ فـيـ الـأـصـلـ لـكـلـ مـعـبـودـ ثـمـ غـلـبـ عـلـىـ الـمـعـبـودـ بـالـحـقـ وـاـسـتـقـاـهـ مـنـ أـلـهـ أـلـهـ وـأـلـوـهـةـ بـمـعـنـىـ عـبـدـ وـمـنـهـ تـأـلـهـ وـاـسـتـالـهـ وـقـيـلـ مـنـ أـلـهـ إـذـ تـحـيـرـ لـأـنـ الـعـقـولـ تـتـحـيـرـ فـيـ مـعـرـفـتـهـ أـوـ مـنـ أـلـهـتـ إـلـىـ فـلـانـ أـيـ سـكـنـتـ إـلـيـهـ لـأـنـ الـقـلـوبـ تـطـمـئـنـ بـذـكـرـهـ وـالـأـرـواـحـ تـسـكـنـ إـلـىـ مـعـرـفـتـهـ أـوـ مـنـ أـلـهـ إـذـ فـزـعـ مـنـ أـمـرـ نـزـلـ عـلـيـهـ وـأـلـهـةـ غـيرـهـ أـجـازـهـ إـذـ العـائـذـ يـفـزـعـ إـلـيـهـ وـهـوـ يـجـبـهـ حـقـيـقـةـ أـوـ بـزـعـمـهـ أـوـ مـنـ أـلـهـ الـفـصـيلـ إـذـ وـلـعـ بـأـمـهـ إـذـ الـعـبـادـ يـوـلـعـونـ بـالـتـضـعـ إـلـيـهـ فـيـ الشـدـائـدـ أـوـ مـنـ وـلـهـ إـذـ تـحـيـرـ وـتـخـبـطـ عـقـلـهـ وـكـانـ أـصـلـهـ وـلـاهـ فـقـلـبـ الـوـاـوـ هـمـزـةـ لـاستـقـالـ الـكـسـرـةـ عـلـيـهـ اـسـتـقـالـ الـضـمـةـ فـيـ وـجـوهـ فـقـيلـ إـلـهـ كـيـاءـ وـإـشـاحـ وـيـرـدـهـ الـجـمـعـ عـلـىـ آـلـهـةـ دـوـنـ أـلـوـهـةـ وـقـيـلـ أـصـلـهـ لـاهـ مـصـدـرـ لـاهـ يـلـيـهـ لـيـهـ وـلـاهـ إـذـ اـحـتـجـ وـأـرـتـفـعـ لـأـنـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ مـحـبـوبـ عـنـ إـدـرـاكـ الـأـبـصـارـ وـمـرـتـفـعـ عـلـىـ كـلـ شـئـ وـعـمـاـ لـاـ يـلـيقـ

به ويشهد له قول الشاعر : .

(كحلفة من أبي رباح ... يشهدها لاهه الكبار) .

وقيل علم لذاته المخصوصة لأنه يوسف ولا يوصف به وأنه لا بد له من اسم تجري عليه صفاته ولا يصلح له مما يطلق عليه سواه وأنه لو كان وصفا لم يكن قول : لا إله إلا الله توحيدا مثل : لا إله إلا الرحمن فإنه لا يمنع الشركة والأظهر أنه وصف في أصله لكنه لما غلب عليه بحيث لا يستعمل في غيره وصار له كالعلم مثل : الثريا والصعق أجرى مجراه في إجراء الأوصاف عليه وامتناع الوصف به وعدم تطرق احتمال الشركة إليه لأن ذاته من حيث هو بلا اعتبار أمر حقيقي أو غيره غير معقول للبشر فلا يمكن أن يدل عليه بلفظ وأنه لو دل على مجرد ذاته المخصوصة لما أفاد ظاهر قوله سبحانه وتعالى : { وهو الله في السماوات } معنى صحيحا وأن معنى الاشتقاء هو كون أحد اللفظين مشاركاً للآخر في المعنى والتركيب وهو حاصل بينه وبين الأمل المذكورة وقيل أصله لها بالسريانية فعرب بحذف ألف الأخرة وإدخال اللام عليه وتفخيم لاه إذا انفتح ما قبله أو انضم سنة وقيل مطلقاً وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة ولا ينعقد به صريح اليمين وقد جاء لضرورة الشعر : .

(ألا لا بارك الله في سهيل ... إذا ما الله بارك في الرجال) .

و { الرحمن الرحيم } اسمان بنينا للمبالغة من رحم كالغضبان من غضب والعليم من علم والرحمة في اللغة : رقة القلب وانعطاف يقتضي التفضل والإحسان ومنه الرحم لانعطافها على ما فيها وأسماء الله تعالى إنما تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادي التي تكون انفعالات و { الرحمن } أبلغ من { الرحيم } لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى كما في قطع وقطع وكبار وكبار وذلك إنما يؤخذ تارة باعتبار الكميه وأخرى باعتبار الكيفية فعلى الأول قيل : يا رحم الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن وعلى الثاني قيل : يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا لأن النعم الأخرى كلها جسام وأما النعم الدنيوية فجليلة وحقيقة وإنما قدم والقياس يقتضي الترقى من الأدنى إلى الأعلى لتقدم رحمة الدنيا وأنه صار كالعلم من حيث إنه لا يوصف به غيره لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها وذلك لا يصدق على غيره لأن من عداه فهو مستعين بلطنه وإنعامه يريد به جزيل ثواب أو جميل ثناء أو مزيج رقة الجنسية أو حب المال عن القلب ثم إنه كالوساطة في ذلك لأن ذات النعم وجودها والقدرة على إيصالها والداعية الباعثة عليه والتمكن من الانتفاع بها والقرى التي بها يحصل الانتفاع إلى غير ذلك من خلقه لا يقدر عليها أحد غيره أو لأن الرحمن لما دل على جلائل النعم وأوصلها ذكر الرحيم ليتناول ما خرج منها فيكون كالتنمية والرديف له أو للمحافظة على رؤوس الآي .

والأظهر أنه غير مصروف وان حظر اختصاصه بما تعالى أن يكون له مؤنة على فعلى أو فعلانة

إلحاقا له هو الغالب في بابه وإنما خص التسمية بهذه الأسماء ليعلم العارف أن المستحق لأن يستعان به في مجتمع الأمور هو المعبود الحقيقى الذى هو مولى النعم كلها عاجلها و آجلها جليلها وحقيرها فيتوجه بشراسره إلى جناب القدس ويتمسك بحبل التوفيق و يشغل سره بذكره والاستعداد به عن غيره